ممالك الرماد

محمود سليمان الظاظا

الجزء الثالث

1_

من يزعم

من يزعمُ أنَّ النجومَ
لا تسطعُ صباحًا،
وأنَّها لا تعرفُ إلا الليل؟

بلى...
رأيتُهُنَّ بأمِّ عيني
يبرقنَ،
ويتألّقنَ في وضحِ النهار.
فلا يقولنَّ قائلٌ بعد اليوم
إنَّ النجماتِ
لا يسطعنَ إلا ليلًا...
فالضوءُ
ليس حكرًا على العتمة.

_2

شرف المحاولة

ربما القصائدُ التي كتبتُها
من قبل،
وتلك التي ستأتي بعد،
لم تبلغْ بعدُ
المستوى الأدبيَّ الرفيعَ
المعهود.
لكنَّني—
ويكفيني هذا—
أحملُ شرفَ المحاولة.

3

أنا شاعرٌ مُحكَمُ الرؤيا
أؤمنُ بما يُمليه الحدس

وحدسي يُنبِّهني خافتًا
أنَّ طيفًا أبيضَ للغياب
سيظلُّ يَتَعقّبُ الظلال
ظلَالَ حزبٍ يُدعى حزبَ اللّٰه
حتى ينطفئَ آخرُ صدى
فصدِّقوا... أو دعوا الأمرَ للغيب

4

أفظعُ من حوتِ مار جريس...

أولئك المستوطنون المتشدّدون في
فلسطين المحتلة

لم يتركوا شيئًا إلا واستولوا عليه عنوةً، بلا استحياء.
لم يوفّروا بيتًا، ولا مبنى، ولا متجرًا،
ولا مزرعةً، ولا شجرةً، ولا نبتة.
لم يتركوا نعجةً ولا دابة،
ولا آليةً ولا لباسًا:
لا كساءً، ولا رداءً، ولا حذاء.
عبثوا بكلّ شيء:
بالطعام والزاد،
بالأثاث والمتاع،
بالملاعق والصحون،
بالفناجين وأقداح الشاي.
حتى أبسط التفاصيل لم تسلم:
مخدّة، شرشف،

صابونة، معجون أسنان،
منشفة، مسحوق غسيل،
شمعة، قنديل، محراث.
استولوا على السيارات والدراجات،
وعلى الأرض وما عليها،
صغيرها وكبيرها.
لم يتركوا وراءهم شيئًا...
أفظعُ من حوتِ مار جريس.

5

عمليةُ اغتيالٍ مُحكَمة
للفارسِ المقدام، الشجاع،
الذي واجه جيشَ العدوّ الغاشم

على عدّةِ جبهات.
تقدّم ثابتًا،
معتليًا صهوةَ جواده الأسود،
شاهِرًا حسامَه البتّار،
قاصدًا مواجهة العدو.
لكنّه اغتيل،
في ظروفٍ غامضة،
لا يعلمها إلا اللّٰه وحده،
سبحانه وتعالى.

6

في عالمِ الشعر،

تولدُ عشراتٌ، وربما مئاتُ القصائد،
في الحبّ والغزل،
وفي الوطنية والحماسة والبطولة،
وغيرها من ألوان التعبير.
منها ما يُبصر النور،
ومنها ما يبقى حبيسَ النسيان،
إلى أجلٍ غيرِ مسمّى.

7

في عالمِ الشعرِ الرحب،
تتنوّعُ القصائدُ وتتكاثر،
منها ما يُبصرُ النور،
ومنها ما يبقى طيَّ النسيان،

إلى أجلٍ غيرِ مسمّى.

8

أحيانًا،

تبلغُ بكَ حالتكَ النفسيةُ حدًّا
تفقدُ فيه الرغبةَ في كتابةِ الشعرِ تمامًا،
وكأنك تشهدُ
موتَ القصيدةِ
قبلَ أن تولد.

9

خسرَ الشاعرُ النبيلُ
أغلى ما عنده

في معاركِ ممالكِ الرمادِ المحتدمة:
ماءَ وجهِه.

10

في مملكةِ الرماد
سَلَبوا الفارسَ الباسلَ
جوادَه العربيَّ الأصيل
وسيفَه البتّار
وترسَه الصلب
ورمحَه المشرع
وخُوذتَه الفولاذيّة
وخنجرَه الحاد
وقوسَه وجعبتَه
حتى غدا عاريَ الحيلة

ثم استعطفوه
أن يقفَ دونهم
في وجهِ جيشٍ زاحف
فبأيِّ شيءٍ يُدافعُ عنهم؟
أَيَذرُّ الرمادَ في العيون؟

11

وفي ليلةٍ ظلماء
ظهر الإبليسُ الخسيسُ خُلسةً
ناطقًا بلسانٍ عربيٍّ فصيح:
ضع يدَك بيدي،
لأمطرنّ عليك قصائدَ عجبًا،
ضع يدك بيدي،

واهجرْ أحبَّ بقاعِ الأرضِ إلى اللّٰه،
وعِلمَ الدينِ الحنيف،
والعلماءَ النجباء،
ضع يدك بيدي
أُرِكَ العجبا.
فقلتُ: اخسأْ يا لعين،
لن يكون.
فقال:
لا شعرَ بعد اليوم يُرتجى،
قد هتكتَ السرَّ فيما بيننا،
وملكُ الشعرِ فارقَ المخيّلة،
فلا تحلمنَّ بعد اليوم
بحرفٍ واحد،
ولا بكلمة.

فأرِني – يا شاعر –
ماذا أنتَ بلا شعر؟
ستغدو حياتُك هشيمًا مهشّمًا،
لا روحَ فيها،
لا ماءَ نضّاخًا،
ولا حياة،
صحراءَ جافةً قاحلةً،
يابسةً... يباب.

12

سيحلّق هذا الشعرُ
– عالياً أو خافتًا –
لا فرق،

ما دام جناحاه مفتوحين.
هكذا هو الشعرُ الحقّ:
باسطًا ظلَّه
فوق مملكةِ الرماد،
كأنّه يرفضُ الانحناء
لإملاءاتِ العدوّ،
يمضي...
لا ينكسر،
ولا يستأذنُ الريح،
وفي صمتهِ
كبرياءُ نارٍ
لم تنطفئ.

إلى وليد بك جنبلاط

صكوك غفران

تمضي خطوتينِ

متعثّرًا بأحلامك،

أحلامٍ بعيدةٍ

عن الشيوخ،

عن الرجال،

عن النساء،

وعن أطفالٍ

بعثرتهم رياحُ الحياة

في الجهاتِ كلّها.

دونَ رجعة...

بين بيروتَ والشوف
ظلالٌ من ورق،
وشعلةٌ من نور،
وحفنةُ تراب.
وعليكَ أن تحفر
في قلبِ الأرض،
في وجعِها العتيق،
لتنالَ قبلةً،
أو اعترافًا،
أو صكوكَ غفران.

14

مملكة الرماد

وحدهُ الليلُ يمشي،
متنزّهًا بين قبائلِه
البربرية،
يتركُ بصمتَه
على تلك القصيدةِ
اللبنانيةِ
الأسطورية.
مملكةُ الرماد...
ويمضي
كأنّهُ آخرُ الشهود
على خرابِ الحكاية.

15
عينُ اللّٰهِ ترعاك

سِرْ...
وعينُ اللّٰهِ، سبحانه وتعالى،
ترعاك.
وامضِ بقلبٍ
لا يخشى العتمة،
فالدعاءُ رفيقُ الخطى،
والنورُ يسكنُ الأرواحَ الصادقة.
الشاعر:
الظاظا محمود
ابنُ العاصمةِ بيروت الأبيّة.

16

صوتٌ يصدحُ من بعيد

صوتٌ يصدحُ من بعيد،
داعيًا إلى النفيرِ العام،
إلى مواجهةِ العدوِّ المحتلّ
في ساحاتِ البطولة،
والكرامة،
والعزّة،
والشرف.
صوتٌ واضحٌ للعيان،
كوضوحِ شمسِ النهار.
ترى... صوتُ مَن؟
أرجلٍ هو؟
أم امرأة؟
أفارسٍ؟
أم مقاتل؟

أمناضل؟

أم شاعر؟

أكاتب؟

أم جندي؟

أضابط؟

أم قائد؟

أم نائب؟

أم قاضٍ؟

أم وزير؟

أم مشير؟

ترى... صوتُ مَن؟

لعلّهُ صوتُ ذلك الشاعرِ

الثائر،

القاطنِ في أسفلِ البلدة.

فهلمّوا...

لبّوا النداء،

وامضوا وكلّكم أملٌ

بغدٍ مشرق،

وثقةٌ بالنصرِ الإلهيِّ الكبير.

فصوتُ الحقِّ

يعلو،

ولا يُعلى عليه.

17

الفوضى العارمة

هذه القصيدةُ

غارقةٌ

في فوضى عارمة.
القلمُ،
والجُملُ المبعثرة،
والأفكارُ المتزاحمة،
كلُّها تبدو
كأنّها تهوي
في دوّامةِ الفوضى.
من أوّلِ الجملة
حتى آخرِها...
فوضى عارمة.
ضوضاءُ مدينة،
وصداعُ رأس،
وضيقٌ في الصدر.
شعرٌ متعب،

وشاعرٌ
أنهكَتهُ الكلمات.

18

الصخرة
في ممالكِ الرماد،
سأُسندُ ظهري
إلى تلك الصخرةِ الضخمة
عندَ المنعطفِ الآخر
من ضفّةِ الحياة.
صخرةُ العلم،
والدين،
والمعرفة،

والأدب.
فلا خلاصَ لي،
ولا نجاة،
إلّا بالعبورِ إليها،
والاحتماءِ بظلّها.
فبها تُنالُ الحكمة،
ويهدأُ القلب،
ويُرجى رضا اللّٰه
وتخفُّف وطأةُ العقاب.

19

فجأة
فجأةً،

وجدَ نفسَهُ

في رحابِ مسجد البسطة الفوقا،

التابعِ لـ جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية،

يرتّلُ كتابَ اللّٰه،

في خشوعٍ وسكينة،

متلوًّا ا آياتٍ

تغسلُ القلبَ من التيهِ والتعب.

بعدما كانَ مأخوذًا

بمضاربِ البدو،

وهمساتِ الجنّ،

وعفاريتِ الفنجان.

فسبحانَ الذي

يُغيّرُ الأحوال،

ولا يتغيّر.

20

مهمةُ السيدِ المسيحِ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلام
كانتْ مهمةُ السيدِ المسيحِ،
عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلام،
في الأرضِ
بناءَ الإنسان
قبلَ البنيان،
وقبلَ الحصونِ المتينة،
والقلاعِ الشاهقة،
والصوامعِ العالية.

بناءَ الإنسانِ
على الرشاد،
والفكرِ القويم،
والنهجِ السليم،
القائمِ على عبادةِ اللّٰهِ وحده،
سبحانه وتعالى،
دونَ إشراكٍ به،
مع تعظيمِه،
وتقديسِه،
ومحبّتِه،
وطاعتِه،
واجتنابِ معصيتِه.
ثمّ جاءَ مَن بعدَهُ
فخالفوا تعاليمَه،

وابتعدوا عن مبادئِه
وقيمِه،
فضلّوا
وأضلّوا.
21

ليالي الأنس وبهجتها
هجرنا ليالي الأنسِ
وبهجتَها،
حتى غدونا
كغرباءَ
على عتباتِها.
لا نساءُ تُسعدُنا،
ولا نغمةٌ تُطربُنا،

ولا مدامٌ يفرحُنا،
ولا لذّةٌ
تنتشينا.
فقطُ صدى الأيام،
وفراغُ القلب،
وظلُّ ذكرى
لا تعود.